ضوابط الخطاب الدعوي وأساليبه
في ضوء نصوص القرآن الكريم

زيد بن علي مهارش

قسم الثقافة الإسلامية- كلية التربية- جامعة جازان

الملخص

الدعوة إلى الله تعالى أصل عظيم من أصول الإسلام ، وهي مهمة أنبياء الله ورسله -عليهم الصلاة السلام - ومهمة التابعين لهم بإحسان ممن هيأهم الله لحمل هذه المهمة العظيمة والمتأمل لواقع الخطاب الدعوي يلحظ بجلاء شيئا من الانحراف في فقهه في زماننا هذا والله المستعان .ولقد جاء هذا البحث المتواضع بعرض لمنهجية صحيحة في الدعوة إلى الله تعالى وقد سلك الباحث منهج الاستقراء والاستنباط لضوابط الخطاب الدعوي وخصائصه وأساليبه من نصوص القران الكريم. وكانت أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة أن الضوابط الشرعية للخطاب الدعوي أمان -بإذن الله تعالى - على الدعاة إلى الله أن تزل بهم الاقدام ، أو أن يسقطوا في شبه المناوئين لهذا الدين متى كانت خطاباتهم صادره عنها ، وأن السبيل الوحيد لمعالجة أوضاع الأمة الاسلامية ، بل البشرية جمعاء هو الدعوة إلى الله عن علم وبصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة مع قراءة صحيحة لواقع المخاطبين .

الكلمات المفتاحية: الخطاب الدعوي- نصوص القرآن - الدعوة- مهمة الأنبياء

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء :١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]

أما بعد:

فإن الدعوة إلى الله -تعالى- أصل عظيم من أصول الإسلام، وهي مهمة أنبياء الله ورسله-عليهم الصلاة والسلام- ومهمة التابعين لهم بإحسان ممن هيأهم الله لحمل هذا اللواء: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

إن الخطاب الدعوي ليس رسالة تكتب، ولا قولاً يُلقى هنا وهناك بغير قيد أو ضابط، بل هو قول ثقيل ثَقُلَ على السموات والأرض والجبال.

والمتأمل في واقع الخطاب الدعوي يلحظ بجلاء شيئاً من الانحراف في فقهه، ويترك ما يجب لله فيه لغرضٍ أو هوى والله المستعان.

ولقد بني الله تعالى هذه الحياة الدنيا على سنن ثابتة لا تتغير، ولا تتخلف، ومن هذه السنن ارتباط الأسباب بمسبباتها، والدعوة سبب للهداية، ولن يتحقق هذا المقصد إلا إذا قامت هذه الدعوة على وفق سننها التي أنهجها الله -جلَّ وعلا- رسوله ﷺ، وبينها له.

ولهذا أحببت أن أسهم في هذا الباب العظيم بهذا البحث المتواضع الذي سميته:(ضوابط الخطاب الدعوي وأساليبه في ضوء نصوص القرآن الكريم)، وأرجو أن يكون لبنة في بناء منهج صحيح للدعوة إلى الله -تعالى-

البريد الإلكتروني : dz-mhrsh@hotmail.com
ردمد : ٦٠٥٠-١٦٥٨

بمنهجية تحليلية استنباطية وفق الخطة التالية:

- **المقدمة.**
- **التمهيد، وفيه:**

أولاً: تعريف الخطاب الدعوي.

ثانياً: أهميته وحاجة الناس إليه.

المبحث الأول: ضوابط الخطاب الدعوي، وفيه : أربعة مطالب:

المطلب الأول: أن يكون الخطاب الدعوي عن بصيرة.

المطلب الثاني: أن يكون الخطاب الدعوي عن إخلاص.

المطلب الثالث: أن يكون الخطاب الدعوي واقعياً.

المطلب الرابع: أن يكون الخطاب الدعوي واضحاً.

المبحث الثاني: خصائص الخطاب الدعوي، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الجهرية.

المطلب الثاني: الشمول.

المطلب الثالث: الوسطية.

المبحث الثالث: أساليب الخطاب الدعوي، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: أسلوب الدعوة إلى الله بالحكمة.

المطلب الثاني: أسلوب الدعوة إلى الله بالموعظة الحسنة.

المطلب الثالث: أسلوب الدعوة إلى الله بالمجادلة بالتي هي أحسن.

الخاتمة : وفيها أهم النتائج والتوصيات .

ثبت المصادر والمراجع

وقد سرت في كتابة هذا البحث حسب مناهج البحث العلمي قدر الطاقة والوسع.

وبعد: فإن كنت قد وفيت هذا البحث حقه، فذلك ما قصدت إليه، وإن كان غير ذلك فمرجعه إلى الجهد البشري المحدود الذي يعتريه النقص والخطأ، والله وحده يعلم أني ما قصدت إلا خدمة العلم الشريف، وأن يكون هذا البحث المتواضع محاولة لفتح آفاق علمية منهجية رحبة يفيد منها الدعاة إلى الله تعالى خصوصاً، والأمة عموماً، وأرجو الله أن يتقبل ما فيه من الصواب، وأن يعفو عن ما فيه من الزلل.

وصلى الله عليه وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم

الباحث

التمهيد:

أولاً: تعريف الخطاب الدعوي في اللغة والاصطلاح:

يدور لفظ الخطاب في كل كتب المعاني[١]. حول إلقاء بعض الكلام الهادف المفهوم على آخر، فيقال: خطب القوم، وفيهم، وعليهم.

والخِطابُ والمخاطبة: مُراجَعَةُ الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبةً، وخِطاباً، وهما يتخاطبان.

قال ابن فارس: "الخاء والطاء والباء أصلان:

أحدهما: الكلام بين اثنين، يقال: خاطبه يُخاطبه خطاباً، والخطبة من ذلك..."[٢]

وهو في الاصطلاح: اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه.[٣]

أما الدَّعَوي فهو من الدعوة التي يدور لفظها حول: الطلب، والسؤال، والنداء، والتجمع، والدعاء، والاستمالة[٤]، والأصل في مفهوم الدعوة أنه يعتمد على البيان والكلام.

قال ابن فارس:" الدال والعين والحرف المعتل أصلٌ واحد، وهو أن تميل الشيءَ إليك بصوت وكلام يكون منك..."[٥].

والدعوة في الاصطلاح: دعوة الناس إلى الإسلام بالقول والعمل[٦].

وفي ضوء ما تقدم يمكن أن يعرف الخطاب الدعوي بأنه: فنُ دعوة المكلفين وصرف أنظارهم إلى فكرة أو عقيدة، وإقناعهم بها بالقول أوالفعل.

---

(١) انظر: كتاب العين: (٢٢٢/٤)، والصحاح: (١٠٩/١)، ولسان العرب: (٣٦٠/١).

(٢) معجم مقاييس اللغة: (٣٦٨/١).

(٣) الكليات: (٤١٩).

(٤) انظر: جمهرة اللغة: (٦٦٦/٢)، ولسان العرب: (٢٥٨/١٤).

(٥) معجم مقاييس اللغة: (٤٠٩/١).

(٦) تفسير الطبري: (٥٣/١١).

ثانياً: أهميته وحاجة الناس إليه:

إن من أهم مقاصد الخطاب الدعوي إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، والأخذ بحجزهم أن يقعوا في النار، أو يتيهوا في متاهات الضلال؛ ولذا كان لصاحب هذا الخطاب شرف عظيم، ومقامٌ كريم، فقد كرمه الله تعالى وشرفه بإشراكه مع رسوله صلى الله عليه وسلم في وظيفته فقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[يوسف: ١٠٨].

فالدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها، قال تعالى:﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

قال العلامة ابن القيم:" الدعوة إلى الله تعالى هي وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل في أممهم، والناس تبع لهم. والله –سبحانه- قد أمر رسوله ﷺ أن يبلغ ما أُنزل إليه من ربه، وضمن له حفظه وعصمته من الناس، وهؤلاء المبلغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه، وتبليغهم له، وقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه ولو آية، ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثاً.

وتبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو؛ لأن تبليغ السهام يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا يقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم"(٧) فلولا الدعوة إلى الله لما قام دين، ولا انتشر إسلام،﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة: ٢٤]، فالدعوة إلى الله إمامة للناس، وهداية للخلق، وأجر عظيم عند الله ومآلٌ كريم عنده.

ويكفينا في فضل الخطاب الدعوي قول النبي ﷺ لعلي ولمعاذ أيضاً:" لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمر النعم"(٨).

(٧) التفسير القيم:(٤٣٠).

(٨) حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٣٧٠١)، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب، انظر: صحيح البخاري مع الفتح: (٨٧/٧)، وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٤٠٦)، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، انظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٢٥٣/١٥).

ولقد جعل الله القيام بمهمة البلاغ لرسالة النبوة وحسن أدائها، السبيل الوحيد للنجاة في الآخرة، والعصمة الحقيقية من فتنة الناس في الدنيا فقال جل وعلا:﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾[الجن: ٢٢، ٢٤].

نسأل الله أن يَمُنَّ علينا من فضله، وأن يجعلنا من الدعاة إلى دينه، وأن يرزقنا الحكمة وفصل الخطاب، وإنما ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

* * *

المبحث الأول

ضوابط الخطاب الدعوي

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول:

أن يكون الخطاب الدعوي عن بصيرة.

المطلب الثاني:

أن يكون الخطاب الدعوي عن إخلاص.

المطلب الثالث:

أن يكون الخطاب الدعوي واقعياً.

المطلب الرابع:

أن يكون الخطاب الدعوي واضحاً.

المطلب الأول: أن يكون الخطاب الدعوي عن بصيرة:

إن البصيرة بالأمر الذي يدعو إليه الداعية ضابط من أهم ضوابط الخطاب الدعوي، فإذا وقف فعن علم يقف، وإذا تقدم فعن علم يتقدم؛ ولهذا قال جل وعلا:﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[يوسف:١٠٨]. والبصيرة من أعلى درجات العلم، وفيها معنى زائد عليه.

قال العلامة ابن القيم :" أعلى درجات العلم:

البصيرة؛ التي تكون نسبة العلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر، وهذه هي الخصيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة، وهي أعلى درجات العلماء"(٩).

إن فقدان هذا الضابط من ضوابط الخطاب الدعوي عند المشتغلين به يوقعهم في الأخطاء والمخالفات؛ لأن البصيرة هي الميزان الذي يزن به الداعية الأمور، ويقدر به الأشياء؛ إذ هي تجمع العلم والحكمة، ولهذا عقد الإمام البخاري في صحيحه باباً سماه باب العلم قبل القول والعمل، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩]، قال رحمه الله: " فبدأ بالعلم قبل القول والعمل"(١٠).

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله- :"قال ابن المنير: أراد به: أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به، فهو متقدم عليهما"(١١).

فالدعوة إلى الله على بصيرة ليست دعوة عامية، ولا نعرة جاهلية، ولا تقليداً لفلان وفلان، بل هي دعوة مستبصرة مبنية على النص والدليل رسماً ومعنى، وكل صاحب خطاب دعوي في هذه الدنيا بحاجة إلى هذه البصيرة لتنقذه من المشكلات، وتنجّيه من الملمات.

لقد تضافرت نصوص القرآن الكريم على تأثيم من يمارس هذا الخطاب الدعوي بغير بصيرة وعلم، فهو مخالف لأمر ربه، مضل لنفسه وغيره قال جل وعلا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣].

وقال جل وعلا: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وقال جل وعلا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

إذا تقرر هذا فإنه لا يجوز لأحدٍ أن يمارس الخطاب الدعوي إلا بعد أن يحمل قدراً من العلم يكفيه في دعوته؛ "لأن العامل بغير علم وبصيرة ليس من عمله على طائل، بل ربما جاءه الهلاك من جهة عمله، كالحاطب في ظلماء، والسالك في عمياء، ولا سبيل إلى العمل إلا بالعلم، ومعرفة صلاح العمل وفساده لابد منه ولا يدرك إلا بنور العلم وبصيرته"(١٢).

وإن الله جل وعلا أمر الأمة حال حدوث الفتنة والفرقة والشقاق بين الناس أن يكون مرجعهم إلى كلام الله، وكلام رسوله ﷺ بفهم أهل العلم بكلام الله وكلام رسوله ﷺ، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

والذين يستنبطونه منهم هم أهل البصيرة والعلم والعارفون بكلام الله، وقد أمر الله عز وجل بالرجوع إليهم والنهل من علمهم فهم أعلم الناس بالله.

فالواجب على كل داعية قبل أن يباشر الدعوة إلى الله، ويخوض غمارها، ويدخل ساحتها، أن يتسلح بالعلم الشرعي، وهو ما أنزله الله على رسوله ﷺ من الكتاب والحكمة ومعرفة ما أراد الله من ذلك وفهمه على نحو ما فهمه الصحابة والتابعون، وأتباعهم من أئمة الهدى والدين في الأمة، حتى يتحقق ضابط البصيرة في الدعوة إلى الله جل وعلا، فنجاح الخطاب الدعوي مرهون بهذا العلم الموروث عن نبينا محمد ﷺ، والذي نقله إلينا

(٩) مدارج السالكين: (٣/٣٥٦).
(١٠) انظر: صحيح البخاري مع الفتح: (١١/٣٩٧).
(١١) فتح الباري: (١١/٣٩٧).
(١٢) الدرر السنية: (٤/٣٤٢).

أصحابه —رضي الله عنهم أجمعين- نقلاً صحيحاً، وهم الذين شاهدوا التنزيل، وعرفوا التأويل، وكانوا أدرى الناس بأحوال النبي ﷺ، ومراده.

إن كل داعية يصدر عن هذه البصيرة قادر —إن شاء الله- على تشخيص كل معضلة أو حادثة تنزل بالمسلمين، وعلاجها، فهو على نور من ربه، فالعلم يسدد له مسيرته، ويوضح له رؤيته، ومن لم يكن خطابه عن علم انحرف، ومن لم يكن على بصيرة تعثر: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[الزمر: ٩].

المطلب الثاني: أن يكون الخطاب الدعوي عن إخلاص:

الدعوة إلى الله عبادة؛ ولذا يجب أن يكون كل خطاب يقدمه الداعية على طريق الدعوة مخلصاً فيه لله تعالى، وإلا كان ضره أكثر من نفعه، فلابد أن يكون الإنسان مخلصاً في كل كلمة تصدر منه وكل تصرف يصدر عنه، فإن عدم الإخلاص مضر ضرراً بالغاً بمقدم الخطاب وسامعه.

إن الإخلاص أساس الفلاح، وعنوان النجاح، :" فكل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس، ويميل إليه القلب، قلَّ أم كثر، إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه، وزال به إخلاصه، والإنسان مرتبط في حُظُوظه، منغمس في شهواته، قلَّما ينفك فعل من أفعاله، وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس.

فلذلك قيل: من سلم له من عُمْره لحظةٌ لوجه الله نجا، وذلك لعزة الإخلاص، وعُسْر تنقية القلب عن هذه الشوائب، بل الخالص هو الذي لا باعث له إلا طلب القرب من الله تعالى"(١٣).

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله- أن إخلاص الدين هو الذي لا يقبل الله تعالى سواه، وهو الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، وأنزل به جميع الكتب، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه(١٤).

إن الخطاب الدعوي الذي مقصوده إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الكفر إلى الإيمان ليس كأي دعوة من الدعوات التي يكفي فيها أن يتحدث الداعي عن دعوته، دون أن يكون مؤمناً بها مخلصاً لها، عاملاً بصدق مبادئها؛ ولذا قال تعالى:﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ١١٤].

يقول الفخر الرازي في تفسير هذه الآية:" والمعنى أن هذه الأقسام الثلاثة من الطاعات-وإن كانت في غاية الشرف والجلالة-، إلا أن الإنسان إنما ينتفع بها إذا أتى بها لوجه الله ولطلب مرضاته، فإذا ما أتي بها للرياء والسمعة انقلبت القضية فصارت من أعظم المفاسد. وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن المطلوب من الأعمال الظاهرة رعاية أحوال القلوب في إخلاص النية، وتصفية الداعية عن الالتفات إلى غرض سوى طلب رضوان الله"(١٥).

إن التأمل في بعض الآيات القرآنية الكريمة الواردة في الدعوة إلى الله يُظْهِرُ أن الإخلاص لله تعالى من أهم ضوابط نجاح الخطاب الدعوي وذلك من نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد:٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾[الحج: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[القصص: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[الأحزاب: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

(١٣) إحياء علوم الدين: (٣٦٨/٤).

(١٤) أنظر: التحفة العراقية في أعمال القلوب: (٥٨).

(١٥) مفاتيح الغيب: (٤٢/١١).

فالدعوة في هذه الآيات دعوة إلى الله لا إلى غيره؛ لأن التخصيص بالذكر يدل على نفي الحكم عما عداه[١٦].

إن الخطاب الدعوي الموجه لجمهور الناس لابد أن يكون خطاباً صادقاً مخلصاً لله يسري بروحه إلى القلوب، فيكون له القبول وفيه البركة والخير، فالإخلاص مركب يصعب العبور بدونه، ولذلك كان ركناً أساساً في صحة العمل وقبوله، فمتى ما انصرف خطابنا الدعوي إلى مصلحة عابرة، أو غرضٍ مؤقت فقد قيمته وتلاشى خيره ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف: ١١٠].

المطلب الثالث: أن يكون الخطاب الدعوي واقعياً:

وعني بهذا الضابط: أن يقوم الخطاب الدعوي على فهم صحيح وواقعية شاملة، واقعية في التصور، وواقعية في الطرح والمعالجة، وواقعية في الطاعة والعبادة، وهذا منطوق قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩].

قال القاضي البيضاوي –رحمه الله-:"أي خذ ما عفا لك من أفعال الناس، وتسهل، ولا تطلب ما يشق عليهم... وأمر بالعرف المعروف المستحسن من الأفعال"[١٧].

وقال العلامة ابن سعدي–رحمه الله- :"هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، أن يأخذ بالعفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم..."[١٨].

فلا يجوز أن يكون الخطاب الدعوي خارج الزمان والمكان، بل يجب أن تكون خطاباتنا الدعوية مرتبطة بزمانها ومكانها، متفهمة لأحوال المخاطبين، متفقة مع كل ظرف، ومتجانسة مع كل حدث، ومتلائمة مع كل حال وواقع، ونازلة إلى أرض الناس.

لقد أقرَّ القرآن الكريم التفاوت النظري والعملي بين الناس، فليس كل الناس في درجة واحدة في طاعة الله– جل وعلا-، فمنهم الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات؛ كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[فاطر: ٣٢]

كما أنه سبحانه حينما أقسم بالليل إذا يغشى، والنهاري إذا تجلى، ونوعي الخلق الذكر والأنثى قال: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾[الليل: ٤]، في إشارة إلى أن سعي الناس في هذه الدنيا مختلف، فمنهم من يسعى لزكاء نفسه، ومنهم من يهبطها إلى أسفل الدركات بعصيانه وتقصيره في طاعة ربه.

والقرآن الكريم الذي تشكلت من خلاله خير أمة أخرجت للناس أخذ بعين الاعتبار المخاطبين ومستوياتهم، وخلفياتهم الدينية والثقافية، ودرجات إيمانهم، وفروقهم الفردية، فراعى التنوع في الخطاب، والتدرج في أخذ الناس بأحكام الدين شيئاً فشيئاً: فكان خطابه في مكة غير خطابه في المدينة النبوية، من حيث النداء والمضمون، ونحو ذلك.

وكذلك خطاب المؤمنين غير خطاب الكافرين،وخطاب أهل الكتاب ومحاجتهم، وتحذيرهم من كتمان الحق لم يكن كالخطاب للكافرين، وخطابات المنافقين والذين في قلوبهم مرض ليست كخطاب الكفار والمشركين.

وما كان المسلمون في أول عهدهم لينكروا الفروق في القراءات بعدما سمعوا تيسير الرسول ﷺ :" أنزل القرآن على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه"[١٩]. وهذا ضرب من التخفيف في قراءة القرآن؛ لأن بعض الناس لا يستطيعون القراءة أو النطق بغير لهجة أقوامهم المحلية، وما ألفوه من طرائق النطق وأساليب اللفظ والأداء، من فتح وإمالة وترقيق وتفخيم، وغير ذلك من وجوه الاختلاف بين اللهجات العربية، وهنا تبرز الحكمة الكبرى من إنزال القرآن على سبعة أحرف.

والحق أن القرآن الكريم كله كان تقريراً لهذه الواقعية التي يجب أن يكون عليها الخطاب الدعوي وذلك بنزوله منجماً حسب الوقائع والأحداث، ثم بمنهجيته الواقعية

(١٦) انظر: التحرير والتنوير: (١٢/٥٥)، (١٣/١٥٩).
(١٧) تفسير البيضاوي مع حاشية زاده: (٤/٣٤٩).
(١٨) تيسير الكريم الرحمن: (٣/١٣٤).
(١٩) حديث صحيح متواتر. انظر: المتناثر من الحديث المتواتر: (١١).

في معالجة قضايا الأمة في أول نزوله على رسولنا محمد ﷺ واقعية تظهر في إيجاد المخارج لما قد يحدث من ضرورات، كالتيسير وقت الشدة، وإباحة المحظور للضرورة، وإيجاد الرخص لمن هو بحاجة إليها؛ وذلك لصلاحية هذا الدين لكل زمان ومكان.

واقعية يوضحها تلاؤم أحكامه مع فطرة الإنسان، وتحقيقها لحاجاته، ورغباته التي علمها الله، فشرع ما يناسبها.

لقد شرع الله في كتابه الكريم ما يرد الإساءة، ويردع الجاني، ويمنعه من التمادي، فأقر بذلك مرتبة العدل، ودرء العدوان، ولكنه جلَّ وعلا رغَّب أيضاً في العفو والمسامحة والصفح، فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾[النحل: ١٢٦].

وتسطع هذه المزاوجة بين الواقع والمثال في تدرج القرآن الكريم في معالجة الأمراض المستفحلة في المجتمع، فعندما بعث النبي ﷺ في أمة تشرب الخمر، وتفتخر بذلك، تدرج القرآن الكريم في تحريمه، فأشار أولاً إلى بيان أن فيها إثماً كبيراً، كما قال تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩]، ثم في مرحلة ثانية جاء النهي عن شربها قرب أوقات الصلاة، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾[النساء:٤٣]، ثم جاء الأمر بتحريمها نهائياً، وفي كل وقت كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[المائدة: ٩٠]، وهذا هو الحكم الثابت والمستقر.

إذا تقرر هذا فإن واقعية الخطاب أصل معتبر في الشرع، يؤيده تنزل القرآن حسب الوقائع والأحداث، ويؤكده تغير الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال؛ إذ "المفضول قد يكون أنفع لبعض الناس لمناسبته له، كما قد يكون جنسه في الشرع أفضل في بعض الأمكنة والأزمنة والأحوال، فالمفضول تارة يكون أفضل مطلقاً في حق جميع الناس.. وقد يكون أفضل لبعض الناس؛ لأن انتفاعهم به أتم، وهذه حال أكثر الناس قد لا ينتفعون بالمفضول لمناسبته لأحوالهم الناقصة مالا ينتفعون بالفاضل الذي لا يصلون إلى أن يكونوا من أهله"(٢٠).

يقول العلامة ابن القيم–رحمه الله–:"لا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم:

أحدهما:فهم الواقع،والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علماً.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسول الله ﷺ في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر، فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله... ومن تأمل الشريعة وقضايا الصحابة وجدها طافحة بهذا، ومن سلك غير هذا أضاع على الناس حقوقهم، ونسبه إلى الشريعة التي بعث الله بها رسوله"(٢١).

إن عدم واقعية بعض من يقدم الخطاب الدعوي للناس، جرَّ عليهم وعلى المسلمين الويلات؛ لأنه خطاب في واد، والناس في واد آخر، خطاب غير مرتبط بزمان ولا مكان، ولا بيئته وحال أهله.

وعلى هدي ما تقدم، فإن الانطلاق من تصور صحيح واقعي لأحوال الناس وظروفهم، وبشريتهم، ومعرفة صحيحة لما يريده الله منهم،يجعل الداعية إلى الله جل وعلا موفقاً في خطابه، مثمراً في دعوته، وإلا كان صاحب هذا الخطاب كالمنْبَتِّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى.

المطلب الرابع: أن يكون الخطاب الدعوي واضحاً.

إن من المكونات الأساسية للخطاب الدعوي الوضوح والإبانة؛ إذ إن قيمة الخطاب إنما تتجلى في مستوى الجمع بين الإبلاغ والإفهام معاً، ولا يمكن للكلام أن يكون مؤثراً إلا إذا اعتمد على عنصر الوضوح والإفهام.

---
(٢٠) مجموع فتاوى ابن تيمية: (٣٤٨/٢٢).
(٢١) إعلام الموقعين: (٨٨/١).

ولقد جاء القرآن الكريم سهل الأسلوب، واضح البيان، ليس فيه تعقيد، ولا تلبيس، ولا إبهام، ولذلك قال جل وعلا: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان:٥٨]، وقال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم:٩٧] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧].

قال الإمام الطبري –رحمه الله–:" يقول تعالى ذكره: ولقد سهلنا القرآن، بيناه وفصّلناه للذكر، لمن أراد أن يتذكر ويعتبر ويتعظ، وهوَّنّاه"(٢٢).

وقال –رحمه الله– في موضع آخر:" غير جائز أن يخاطب –جل ذكره– أحداً من خلقه إلا بما يفهمه المخاطب، ولا يرسل إلى أحد منهم رسولاً برسالة إلا بلسان وبيان يفهمه المرسل إليه؛ لأن المخاطب والمرسل إليه إن لم يفهم ما خوطب به، وأرُسل إليه فحاله– قبل الخطاب وقبل مجيء الرسالة إليه وبعده– سواء؛ إذ لم يفده الخطاب والرسالة شيئاً كان به قبل ذلك جاهلاً، والله –تعالى ذكره– يتعالى عن أن يخاطب خطاباً، أو يرسل رسالة لا توجب فائدة لمن خوطب أو أرسلت إليه؛ لأن ذلك فينا من أهل النقص والعبث، والله تعالى عن ذلك متعال؛ ولذلك قال جلّ ثناؤه–في محكم تنزيله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم:٤]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل:٦٤]، فغير جائز أن يكون به مهتدياً، من كان بما يهدي إليه جاهلاً"(٢٣).

كما أن الداعية الأول ﷺ كانت خطاباته في أتم البيان والوضوح والسهولة مع قوتها وروحها، فكان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه(٢٤).

ولقد وصفته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها– رسول الله ﷺ في بيانه وتأنيه ﷺ في حديثه فقالت:" كان يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه"(٢٥).

إذا تقرر ذلك، فإن من الواجب أن تكون لغة خطاباتنا الدعوية –سواء كانت قولية أو كتابية– متسمة بالوضوح والسهولة، بعيدة عن الصعوبة، والتعقيد، والرمزية والغموض، فغاية الدعوة، ومقصودها الأعظم دلالة الخلق على الخالق –جلا وعلا– وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

المبحث الثاني

خصائص الخطاب الدعوي

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول:

الجهريـة.

المطلب الثاني:

الشمـول.

المطلب الثالث:

الوسطيـة.

المطلب الأول: الجهرية:

صاحب الخطاب الدعوي مكلف بتبليغ الإسلام كما نزل من عند الله، لا يكتم منه شيئاً، ولا يتنازل منه عن شيء، وإلا لا يكون التبليغ قد تم، وهذا شرط أساس لتبليغ رسالة الله إلى الناس؛ إذ به أُمر النبي ﷺ فقال الله له: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة:٦٧].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر:١، ٢]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال سبحانه: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر:٩٤].

لقد كانت دعوة رسول الله ﷺ قائمة على أصل

---

(٢٢) جامع البيان: (٢٢/٣٩٩).

(٢٣) جامع البيان: (١/١١).

(٢٤) حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٩٥)، باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم. انظر: صحيح البخاري مع الفتح:(١/١٨٩).

(٢٥) حديث صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه (٣٥٦٧)، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، انظر: صحيح البخاري مع الفتح (٦/٦٥٥)، وأخرجه مسلم في صحيحه:(٢٤٩٣) كتاب الزهد والرقائق، باب التثبيت في الحديث وحكم كتابه العلم. انظر: صحيح مسلم بشرح النووي: (١٨/١٧٥).

الجهرية لا السرية؛ إذ إن السرية في دعوته ﷺ لم تكن الاستخفاء بالدعوة، ولكن الذي كان يستخفي به ﷺ هو إقامة العبادة ومدارسة الإسلام في دار الأرقم بن أبي الأرقم(٢٦).

فالأصل في الدعوة فيها أن تكون ظاهرة بينة، يقوم بها أصحابها جهاراً في إعلان وإظهار للناس، بلا تخوف من أحد، ولا إسرار ولا كتمان؛ وهل الدعوة إلا للحق ودين الحق؟!

إن كل خطاب لا يلتزم فيه صاحبه الإظهار لحقيقة باطنه، فهو محل الريبة والشك حتى يثبت خلاف ذلك، وكل دعوة التزم أصحابها السرية فهي دعوة باطلة حتى يستبين للمسلمين سبب سريتها وتخفيها.

فكم من الضلالات والبدع التي أوهنت صف الأمة، وعظم خطرها، وانتشر شرها من جراء اجتماعات سرية، وجماعات حزبية، قامت على زعم أنها من الحق الذي جاءت به الشريعة، ويستدلون بدعوة النبي ﷺ السرية في مكة، وهذه شبهة لا تستقيم على حال؛ إذ السرية بإقامة العبادة ومدارسة العلم كما مرَّ، أو يقال تنزُّلاً: إن هذه السرية التي تتشبثون بها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

ولقد ثبت عنه ﷺ أنه قال لمن طلبه أن يوصيه:" اعبد الله ولا تشرك به شيئاً. وأقم الصلاة. وآت الزكاة،وصُم رمضان،وحج البيت واعتمر،واسمع وأطع، وعليك بالعلانية وإياك والسر"(٢٧).

وقال الإمام البخاري:" وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: ثم انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه؛ فإني خفت دروس العلم، وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ، ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا"(٢٨).

(٢٦) انظر: في ظلال القرآن: (٧/).

(٢٧) حديث حسن: أخرجه البيهقي في الشعب:(٤٢٩/٣)، فصل في خلق الرسول ﷺ وخلقه وابن أبي عاصم في السنة: (٢٥٥/٢) باب في ذكر السمع والطاعة، وأبو داود السجستاني في الزهد: (٩٣/١)، باب عليك بالعلانية وإياك والسر، قال العلامة الألباني (إسناده جيد) في كتابه ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم. (٢٥٥/٢).

(٢٨) أثر صحيح: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب كيفية يقبض العلم، انظر: صحيح البخاري بشرح ابن بطال: (٣٧/٨).

إذا تقرر هذا فإن التورية لا تفيد، لا من حيث البلاغ، ولا من حيث الحقيقة؛ إذ التخفي والالتفاف والمناورة خروج حقيقي عن أوامر الله وأوامر رسوله ﷺ، وركض وراء مفاهيم غربية أو شرقية اخترقت العقل الإسلامي، وذهبت تتخوض في ثوابت هذه الأمة، ومحكمات هذا الدين طعناً وتسفيها وتشويها بلا رادع ديني أو خلقي ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

المطلب الثاني: الشمول:

إن من خصائص الخطاب الدعوي أن يكون متنوعاً وشاملاً، فلا يُغَيِّب عنصراً من عناصر النشاط الإنساني، كما لا يغيب فرداً من أفراد البشرية، لقد وسع القرآن الكريم ذلك كله في منهجية يعجز العقل الإنساني عن وصفها، ورصفها.

فخاطب الرجل والمرأة، والمؤمن والكافر، والصغير والكبير على حسب مستوياتهم العلمية والذهنية ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص:٨٧].

وسع كل ما يحتاجه البشرية من هداية في أمور الدين، ومصالح الدنيا؛ فقد قال جلا وعلا: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، وقال جل سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

وقد جاء الإعلان الصريح في آخر نزول الوحي على رسول الله ﷺ بإكمال الدين فقال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

قال الحافظ ابن كثير-رحمه الله-:" هذا أكبر نعم الله -عز وجل- على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم-صلوات الله وسلامه عليه-؛ ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خُلف"(٢٩).

لقد خاطب القرآن الكريم جميع القبائل والشعوب

(٢٩) تفسير القرآن العظيم: (٢٦/٣).

بشمولية بليغة، ابتغاء توحيدها في أمة واحدة متآخية، لا فضل فيها لعربي على عجمي، ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات:١٣].

ودعا القرآن الكريم إلى وحدة إسلامية قوامها إخوة المسلمين، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٩٢].

واستوعب القرآن الكريم في خطاباته عقائد الدين وشرائعه، عقائد تتضمن الإيمان بالله والبعث، والجزاء، وشرائع تتضمن العبادات والمعاملات، والآداب، والأحوال الشخصية، والعقوبات الجنائية، والعلاقات الدولية ونحوها.

كما أن القرآن الكريم زاوج في تنويع أساليبه في معالجة قضايا الأمة بأسلوب عجيب بديع.

فلقد:" كان هذا القرآن يُواجه به النفوس في مكة، ويروضها حتى يسلس قيادها، راغبة مختارة، ويرى أنه كان يواجه النفوس بأساليب متنوعة تنوعاً عجيباً.. تارة يواجهها بما يشبه السياط اللاذعة تلهب الحس، فلا يطيق وقعها، ولا يصبر على لذعها، وتارة يواجهها بما يشبه المناجاة الحبيبة، والمسارَّة الودودة، التي تهفو لها المشاعر، وتأنس لها القلوب، وتارة يواجهها بالهول المرعب، والصرخة المفزعة، التي تفتح الأعين على الخطر الداهم القريب، وتارة يواجهها بالحقيقة في بساطة ونصاعة، لا تدع مجالاً للتلفت عنها،ولا الجدل فيها، وتارة يواجهها بالرجاء الصبوح والأمل الندي، يهتف لها ويناجيها، وتارة يتخلل مساربها، ودروبها، ومنحنياتها، فيلقي عليها الأضواء التي تكشفها لذاتها، فترى ما يجري في داخلها مجرى العين، وتخجل من بعضه، وتكره بعضه، وتتيقظ لحركاتها أو انفعالاتها التي كانت غافلة عنها، ومئات من اللمسات، ومئات من اللافتات، ومئات من الهتافات، ومئات من المؤثرات، يطلع عليها قارئ القرآن، وهو يتبع تلك المعركة الطويلة، وذلك العلاج البطيء، ويرى كيف انتصر القرآن على الجاهلية في تلك النفوس العصية العنيدة"(٣٠).

إننا إذا اتسعت دائرة فهمنا لكتاب ربنا —جل وعلا—واستوعبنا شموليته استيعاباً صحيحاً، لتميز خطابنا الدعوي؛ إذ الدعوة الصحيحة الرائدة هي التي توافق هذه المنهجية الشمولية، لكل مرافق الحياة ومهماتها، بدءاً من العقيدة بتعليم من يجهلها، وتصحيح خطأ من ينحرف في فهمها، وتحقيقاً لكل ما تقتضيه مراتب الدين الثلاث: الإسلام، والإيمان والإحسان، ثم تأسيس باقي شعب الإيمان، وركائز الدين على هذا الأصل الأصيل.

إن بعض من يتصدى للخطاب الدعوي لا يدرك هذه الشمولية، فيختزل خطابه في محيط اهتماماته، لا يلتفت إلى غيره وكأنه الدين كله.

والداعية الموفق هو من ينطلق من شمولية هذا الدين وعالميته، وكماله، وقدرته على مواجهة المستجدات، ومعالجة الحوادث، دون انحراف أو خلل، بل وفْقَ تكوين شرعي واعي لمهام وضوابط الخطاب الدعوي، وعدم قصره على منحىً معين. كل ذلك حتى يكون الخطاب شاملاً للخلق، مؤثراً في النفس، فمن لم يتأثر بالترغيب، أصاب مقاتل قلبه الترهيب، ومن لم يتحرك قلبه، تحرك عقله ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

المطلب الثالث: الوسطية:

إن من أبرز الخصائص التي يجب أن يتصف بها خطابنا الدعوي الوسطية، فكراً وسلوكاً؛ إذ إن وسطية الإسلام عامة في كل جوانبه، في العقيدة، والعبادة والأخلاق. والمعاملات، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ [البقرة:١٤٣]، فأمة الإسلام هي صاحبة المنهج الوسط الذي يمثل الصراط المستقيم، أو المنهج الوسط في الدعوة إلى الله دون تفريط ولا غلو.

قال العلامة ابن القيم—رحمه الله—:"ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان، أما إلى تفريط وإضاعة، وإما

(٣٠) في ظلال القرآن: (٣٦٩٢/٦).

إلى إفراط وغلو، ودين الله وسط بين الجافي عنه، والغالي فيه، كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضلالتين، والوسط بين طرفين ذميمين، فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له، فالغالي فيه مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه"(٣١).

إن المتتبع لمنهج القرآن الكريم يجد وسطية خطاباته واضحة جلية من أوله إلى آخره لا مواربة فيها ولا غلو.

ولقد أخبر الله-جل وعلا- رسوله محمداً ﷺ أن هداية التوفيق لا يملكها إلا هو سبحانه فقال: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص:٥٦]. ثم يبن سبحانه له مهمته ﷺ فقال: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ [الشورى:٤٨]، وقال: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [التغابن:١٢]، فبذل رسول الله ﷺ وسعه وطاقته في البيان والبلاغ وفق وسطية رائعة كان نتاجها دخول الناس في دين الله أفواجاً.

كما أن القرآن الكريم نقل لنا كثيراً من خطابات أنبياء الله-عليهم الصلاة والسلام-لأقوامهم مبدوئة بـ(ياقوم)، إشعاراً لهم بأنهم من أفرادهم، مع رقة الأسلوب، وعذوب العبارة.

فنوح -عليه السلام- قال لقومه: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف:٥٩].

وهود-عليه السلام-قال لقومه: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف:٦٥]، وشعيب -عليه السلام- قال لقومه: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف:٨٥]، وإبراهيم -عليه السلام- قال لأبيه وهو يدعوه إلى التوحيد: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ [مريم:٤٢-٤٥].

وأمر الله كليمه موسى وأخاه هارون-عليهما السلام- بتليين الخطاب في دعوة فرعون فقال سبحانه: ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه:٤٢-٤٤]؛ إذ التشديد الذي بكون في غير موضوعه ينفر الناس من دين الله تعالى، وقد يحصل منه -أيضاً- جناية على الدين وأحكامه، أو جناية على المسلمين.

قال ابن حزم الظاهري-رحمه الله-:" ولا تنصح على شرط القبول منك، فإن تعديت هذا الوجه. فأنت ظالم لا ناصح، وطالب طاعة وملْكٍ، لا مؤدي حق أمانةٍ وأخوة، وليس هذا حكم العقل، ولا حكم الصداقة، ولكن حكم الأمير مع رعيته، والسيد مع عبده"(٣٢).

فالوسطية في الدعوة إلى الله تعالى أن نقدم الخطاب الدعوي صادقاً وفق معانيه السامية التي تكرم الإنسان، وتحترم بشريته، فلا ينتخب إلا الأسمى من مفاهيم الدعوة إلى الله، ومضامين البلاغ المبين مؤكدة بالأدلة والبراهين القاطعة وهذا هو منهج أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام.

إن أخطر شيء يعطي انطباعات سيئة عن الدعاة النزعة الخوارجية التي تمارس الخطاب الدعوي دون علم كاف، أو فقه سليم، أو سلوك قويم.

كما أن المداهنة والتمييع لدين الله ومسايرة أهل الباطل، والامتناع عن قول الحق مع القدرة عليه، تشويه للدين القويم، وإثم على صاحبه عظيم،﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم:٩].

قال ابن عباس-رضي الله عنه-:" يقول: لو تُرخص

(٣١) مدارج السالكين: (٢/٤٩٦).

(٣٢) الأخلاق والسير: (٤٤).

لهم فيرخّصون"(٣٣).

إذا تقرر هذا فإن أنجع الوسائل، وأجمل الطرق وأجدى الأساليب، الخطاب الوسطي الذي يقدم من خلال الحكمة والموعظة الحسنة، والأسوة الخيرة، التي تبشر بالخير، وترغب فيه، بعيداً عن التسخط، ورمي الناس بالعظائم، والإجحاف في حق الآخرين، فالخطأ لا يصحح بخطأ مماثل، وإنما يصحح الخطأ بالصواب، والرد إلى كلمة سواء، وقد قال نبي الله شعيب عليه السلام لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

* * *

المبحث الثالث

أساليب الخطاب الدعوي

وفيه تمهيد وثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

أسلوب الدعوة إلى الله بالحكمة.

المطلب الثاني:

أسلوب الدعوة إلى الله بالموعظة الحسنة.

المطلب الثالث:

أسلوب الدعوة إلى الله بالمجادلة بالتي هي أحسن.

التمهيد:

مقام الدعوة في الإسلام مقام عظيم، فهي الركن الأسمى من أركان قيامه، والقيام بها أمرٌ واجب على كل مسلم ومسلمة، كل بحسبه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]

قال الحافظ ابن كثير– رحمه الله–"والمقصود من هذه الآية: أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه"(٣٤).

ولكي تؤتي هذه الدعوة ثمارها، لابد أن تقوم على المنهج الذي رسمه الله لنبيه محمد ﷺ، وللمشتغلين بالدعوة من أتباعه في قوله جلَّ وعلا: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

وقد تضمنت هذه الآية أساليب الدعوة إلى الله تعالى، ودعت إلى استخدام هذه الأساليب حسب الظروف والأحوال، والأمكنة والأشخاص، وبينت أصناف المدعوين الذين يواجههم الداعية إلى الله، وهم ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: مؤمن راغب في الحق، يريده ويحبه، فهذا يدعى بالحكمة.

الصنف الثاني: منشغل عن الحق، متغافل عنه، فهذا يدعى بالموعظة الحسنة.

الصنف الثالث: معاند للحق، ومعارض له فهذا يجادل بالتي هي أحسن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–:" الناس ثلاثة أقسام، أما أن يعترف بالحق ويتبعه، فهذا صاحب الحكمة، وإما أن يعترف به لكن لا يعمل به، فهذا يوعظ حتى يعمل، وإما ألا يعترف به، فهذا يجادل بالتي هي أحسن؛ لأن الجدال فيه مظنة الإغضاب، فإذا كان بالتي هي أحسن حصلت منفعته بغاية الإمكان كدفع الصائل"(٣٥).

وسوف ينتظم الحديث عن الأساليب الثلاثة في المطالب التالية:

المطلب الأول : أسلوب الدعوة بالحكمة

الحكمة لغة: مصدر قولهِم: حَكُمَ أي صار حكيماً، وهو مأخوذ من مادة (ح ك م)، التي تدل على المنع والحبس(٣٦).

والحكمة تطلق ويراد بها العلم، والسُّنة، والفقه في الدين، والعقل، والورع، والفطنة، وغير ذلك، قال أبو عبد الله القرطبي–رحمه الله–:" وهذه الأقوال كلها قريب بعضها من بعض؛ لأن الحكمة مصدر من الإحكام، وهو الإتقان في قول أو فعل، فكل ما ذُكر فهو نوع من الحكمة التي هي الحبس، فكتاب الله حكمة، وسنة نبيه

(٣٣) انظر: تفسير الطبري (١٥٦/٢٣).

(٣٤) تفسير القرآن العظيم : (٩١/٢).

(٣٥) مجموع الفتاوى: (٤٥/٢).

(٣٦) انظر: معجم مقاييس اللغة (٣١١/١)، ولسان العرب (١٤١/١٢)، والقاموس المحيط (١٠٠/٤).

حكمة، وكل ما ذكر من التفصيل حكمة"[٣٧].

وتأتي الحكمة بمعنى الإتقان، فيقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيم[٣٨].

قال العلامة ابن القيم-رحمه الله-:" اسم الحكيم له سبحانه- من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة بأفعاله، ووضعه الأشياء في مواضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه"[٣٩].

الحكمة اصطلاحاً:

عرف الإمام مالك الحكمة فقال: هي معرفة الحق، والعمل به، والإصابة في القول والعمل وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن، والفقه في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان[٤٠].

وعرفها الزمخشري فقال:"هي المقالة المحكمة الصحيحة، وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة"[٤١].

ولعل أبلغ تعريف للحكمة هو ما عرفها به العلامة ابن القيم حيث قال: هي فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي[٤٢].

أسلوب الحكمة في الدعوة إلى الله:

إن الحكمة في الدعوة إلى الله من أهم المطالب:" فكل نظام الوجود مرتبط بهذه الصفة، وكل خللٍ في الوجود في العبد فسببه الإخلال بها، فأكمل الناس: أوفرهم منها نصيباً وأنقصهم، وأبعدهم عن الكمال: أقلهم منها ميراثاً"[٤٣].

وصاحب الخطاب الدعوي مأمور بتوخي الحكمة في خطاباته كما قال الله -جل شأنه-: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[النحل:١٢٥].

فالواجب على صاحب الخطاب الدعوي أن يسلك الطرق الصحيحة في الدعوة، وأن يكون مدركاً لواقعهم، من حيث أحداثه، وطباع الناس، وسلوكهم ومداركهم، بصيراً بأحوالهم، رباني في تعامله، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران:٧٩].

قال ابن عباس-رضي الله عنهما-:" الرباني: هو الذي يربي بصغار العلم قبل كباره"[٤٤]. فيبدأ بالأهم فالأهم، والأنفع فالأنفع، فلا يُدعى الفاقد لتوحيد الربوبية والألوهية إلى الأعمال قبل دعوته إلى التوحيد أولاً، كما لا يُدعى إلى السنن قبل الواجبات، ولا إلى ترك المكروهات قبل المحرمات ونحو ذلك من الأولويات مما هو معلوم من الدين بالضرورة.

ومن الحكمة أن يكون الداعي رفيقاً ليناً مع المدعوين، كما قال الله تعالى- لنبيه ﷺ ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقال الله لموسى وهارون عليهما السلام- ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾[طه: ٤٣، ٤٤].

كما أن من الحكمة أيضاً استخدام الشدة في بعض المواقف، فالحكمة تعني اللين في وقت اللين، والشدة في وقت الشدة، ولذلك نجد نبي الله موسى عليه السلام يشد على فرعون مصر فيقول له: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء:١٠٢]، مع أمر الله له أن يقول لفرعون قولاً لينا سهلاً، لكن هذه الشدة استوجبها الموقف وفق الحكمة التي وهبها الله لأنبيائه-عليهم الصلاة والسلام.

وإن من الحكمة -أيضاً- أن يكون الداعي على فقه بمقاصد الشريعة الإسلامية وبالمصالح والمفاسد، وبشعب الإسلام ومقاماته، وإلا انقلب الخطاب من النصيحة إلى الفضيحة، ومن المعالجة إلى التشفي والانتقام، ومن المصلح المربي إلى القاضي الحاكم، ونحو ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-:" وتمام الورع أن يعلم الإنسان خير الخيرين، وشر الشرين، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل

(٣٧) الجامع لأحكام القرآن: (٣٣٠/٣).
(٣٨) انظر: لسان العرب: (١٤٢/١٢).
(٣٩) التفسير القيم: (٣١)
(٤٠) انظر: مدارج السالكين: (٤٧٨/٢).
(٤١) الكشاف: (٦٧٢/١).
(٤٢) مدارج السالكين: (٤٧٩/٢).
(٤٣) مدارج السالكين: (٤٨٠/٢).
(٤٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٢٢/٤).

المفاسد وتقليلها.

وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية، والمفسدة الشرعية، فقد يدع واجبات، ويفعل محرمات، ويرى ذلك من الورع، كأن يَدَعَ الجهاد مع الأمراء الظلمة، أو يرى ذلك ورعاً، ويدع الجمعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة أو فجور، ويرى ذلك من الورع..."(٤٥).

ومن أصول الحكمة –أيضاً– أن يحدث الناس بما يعقلون ويفهمون، وبما يحتاجون إليه، إذ إن مخاطبتهم بما فوق مستواهم الإيماني، والعلمي ليس من الحكمة في شيء.

قال علي بن أبي طالب– رضي الله عنه–:"حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذَب الله ورسوله"(٤٦).

وقال عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه–:" ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة"(٤٧).

قال الإمام الشاطبي–رحمه الله–:" ليس كل ما يعلم مما هو حق يطلب نشره إنه من علم الشريعة، ومما يفيد علماء الأحكام، بل ذلك ينقسم: فمنه ما هو مطلوب النشر، وهو غالب علم الشريعة، ومنه مالا يطلب نشره بإطلاق، أو لا يطلب نشره بالنسبة إلى حال، أو وقت، أو شخص"(٤٨).

ثم ذكر –رحمه الله قاعدة ضابطة لما تقدم فقال:" فإن صحت في ميزانها، فانظر في مآلها بالنسبة إلى حال الزمن وأهله، فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة، فاعرضها في ذهنك على العقول، فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها إما على العموم إن كانت مما تتقبلها العقول على العموم، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم، وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ، فالسكوت عنها هو الجاري على المصلحة الشرعية والعقلية"(٤٩).

(٤٥) مجموع الفتاوى: (١٠/٥١٢)

(٤٦) أثر صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٧) كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً دون آخرين. انظر: صحيح البخاري الفتح: (١/٢٧٢).

(٤٧) أثر صحيح: أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع. انظر صحيح مسلم بشرح النووي: (١/١١٠).

(٤٨) الموافقات: (٤/١٨٩).

(٤٩) المصدر السابق: (٤/١٩١)

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز–رحمه الله–:" ومن الحكمة إيضاح المعنى، وبيانه بالأساليب المؤثرة التي يفهمها المدعو، وبلغته التي يفهمها حتى لا تبقي عنده شبهة، وحتى لا يخفى عليه الحق بسبب عدم البيان، أو بسبب عدم إقناعه بلغته، أو بسبب عرض بعض الأدلة، وعدم بيان المرجح، فإذا كان هناك ما يوجب الموعظة وعظ وذكر بالآيات الزواجر، والأحاديث التي فيها الترغيب والترهيب، حتى ينتبه المدعو، ويرق قلبه، وينقاد للحق، فالمقام قد يحتاج فيه المدعو إلى موعظة وترغيب وترهيب، على حسب حاله، وقد يكون مستعداً لقبول الحق، فعند أقل تنبيه يقبل الحق، وتكفيه الحكمة، وقد يكون عنده بعض التمنع، وبعض الإعراض، فيحتاج إلى وعظه، وإلى توجيه، وإلى ذكر آيات الزجر"(٥٠).

قال الشيخ العلامة ابن سعدي–رحمه الله–" ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبداءة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين"(٥١).

فالحكمة في الخطاب الدعوي ركن ركين،وهي نعمة من الله يهبها من يشاء من عباده: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

المطلب الثاني: أسلوب الدعوة إلى الله بالموعظة الحسنة:

الموعظة لغة:

الوعظ: مصدر قولهم: وَعَظَ يَعِظُ، وهو من مادة(وع ظ)، التي تدل على التخويف، والعِظَةُ الاسم منه(٥٢).

وقال الخليل: العظة: الموعظَةُ، يقال: وعظتُ الرجل أعظُهُ عِظَةً وموعظةً، واتعظ: تقبل العِظَةَ، وهو تذكيرك إياه الخير، ونحوه مما يرقُّ له قلبه(٥٣).

وقال الجوهري: الوعظُ: النصح والتذكير بالعواقب، تقول: وَعَظْتُهُ وعظاً وعِظَةً فاتعظ(٥٤).

(٥٠) من أقوال الشيخ ابن باز في الدعوة: (٦٤).

(٥١) تيسير الكريم الرحمن: (٣/٩٢).

(٥٢) انظر: معجم مقاييس اللغة: (٢/٦٣٩).

(٥٣) كتاب العين: (٢/٢٢٨).

(٥٤) الصحاح: (٣/٩٨٥).

الموعظة الحسنة اصطلاحاً:

عرفها الإمام الطبري –رحمه الله– فقال:" الموعظة الحسنة: العبر الجميلة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه، وذكرهم بها في تنزيله"(٥٥).

وعرفها القاضي ابن عطية–رحمه الله– فقال:" الموعظة الحسنة: التخويف والترجئة والتلطف بالإنسان بأن تجله، وتنشطه، وتجعله بصورة من يقبل الفضائل"(٥٦).

وعرفها العلامة بان القيم –رحمه الله– فقال:" هي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة"(٥٧).

وعرفها الإمام الشوكاني–رحمه الله– فقال:"هي المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة، التي يستحسنها السامع، وتكون في نفسها حسنة، باعتبار انتفاع السامع بها"(٥٨).

أسلوب الموعظة الحسنة في الدعوة إلى الله:

لاشك أن الموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن داخلتان في الحكمة التي تقدم الكلام عنها، فيكون عطفهما في قوله تعالى:﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[النحل:١٢٥] من باب عطف الخاص على العام.

الموعظة الحسنة علاج من وقع في الغفلة، سواء أكانت غفلة أصلية كغفلة المنافقين، أو غفلة غير لازمة كغفلة المؤمن الذين تصيبه بسبب الشهوات، والركون إلى الدنيا.

والموعظة الحسنة هي التي تكون في موضعها، موجهة لمن يستحقها، وإلا لم تكن حسنة.

قال العلامة ابن القيم– رحمه الله–:" أطلق –الله– الحكمة، ولم يقيدها بوصف الحسنة؛ إذ كلها حسنة، ووصفُ الحُسْن لها ذاتي.

وأما الموعظة، فقيدها بوصف الإحسان؛ إذ ليس كل موعظة حسنة..."(٥٩).

لقد خاطب القرآن الكريم العصاة من المسلمين بما يتناسب وإيمانهم، فخاطبهم تارة بما في قلوبهم من إيمان، نحو قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد:١٦]،وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [الطلاق: ٢]، وقوله تعالى: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [النور:١٧].

وخاطبهم بالترغيب فقال سبحانه: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣]، وبقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الحديد:٨].

وتارة يجمع جل وعلا بين الترغيب والترهيب في نص واحد كقوله تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

إن من أجمل اللفتات المنهجية في هذه النصوص القرآنية عدم إثارة ماضي المدعوين أو لومهم على ما مضى من سالف أعمارهم، فالتوبة تجب ما قبلها، كما أن الإسلام يهدم ما قبله، وهذا الذي يجب أن يترسمه صاحب الخطاب الشرعي، إذ هو من الطيب من القول، ومن الحسن فيه، كما قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة:٨٣]؛ فالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتخالط المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب والتعيير في غير موجب، فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير، على عكس ما يفرزه الزجر والتأنيب والتوبيخ.

ومن حسن الأسلوب الذي أمر الله به: قص القصص، فله تأثير عجيب في النفوس الغافلة، ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٦].

---

(٥٥) جامع البيان: (٤٠٠/١٤).
(٥٦) المحرر الوجيز (٤٣٢/٣).
(٥٧) مفتاح دار السعادة: (١٥٣/١).
(٥٨) فتح القدير: (٢٥٥/٣)
(٥٩) مدارج السالكين: (٤٧٩/١).

وكذلك ضرب الأمثال من خلال الخطاب الدعوي فله جاذبية في السمع وأثر في الفهم، وجلب للنفوس ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣].

إن كل صاحب خطاب دعوي يستطيع التنويع في الطرح والأسلوب بالترغيب تارة، والترهيب تارة، وبهما جميعاً تارة أُخرى، وبقص القصص، وضرب الأمثال الموضحة سيكون قريباً من القلوب، ومرغوباً فيه لاعنه، كمن يقدم خطابه خالياً من كل تأصيل عقدي،أو فوائد علمية، أو رؤى منهجية ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج:٢٤].

المطلب الثالث: أسلوب الدعوة إلى الله بالمجادلة الحسنة:

المجادلة لغة:

مصدر قولهم: جادله تجادلُهُ جِدَالاً ومُجادَلَةً، وهو مأخوذ من مادة (ج د ل)، التي تدل على استحكام الشيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام، تقولُ من ذلك: جادله، أي ناظره وخاصمه، والاسم من ذلك: الجدل، وهو شدة الخصومة(٦٠).

المجادلة اصطلاحاً:

أورد الجرجاني عدداً من التعريفات الاصطلاحية للجدل:(٦١).

منها:" الجدل عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها"

ومنها:" الجدل هو القياس المؤلف من المشهرات والمسلمات، والغرض منه إلزام الخصم، وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان".

وعرف الكفوي المجادلة بقوله:" هي المنازعة في المسألة العلمية لإلزام الخصم، سواءً كان كلامه فاسداً أو لا"(٦٢).

أسلوب المجادلة بالتي هي أحسن في الدعوة إلى الله:

لما كان من المعلوم بالضرورة أن دين الإسلام لا يقوم بالإكراه، ولا ينتشر بالقوة،-بل بإقامة الحجة والدليل،- وكان بعض الذين يوجه إليهم الخطاب معاندين ومعرضين انتقل بنا الأمر إلى المجادلة) وجادلهم بالتي هي أحسن (، فلم يقل بالجدل الحسن، أو بالمجادلة الحسنة، بل قال:(التي هي أحسن)؛ لأن الأصل في الجدال أنه لا يؤدي إلى ثمرة في الدعوة، فلا يكون إلا بين متخاصمين متنافرين، لا يقبل أحدهما من الآخر؛ ولذا لابد أن تكون المجادلة بأفضل الطرق من الجدال الأمثل الحق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله- "صاحب الحكمة يدعى بالمقدمات الصادقة، سواء كانت مشهورة أو مسلمة، أو لم تكن، لما فيها من إدراك الدين وإتباع الحق.

وصاحب الموعظة يدعى من المقدمات الصادقة بالمشهورة؛ لأنه قد لا يفهم الخفية من الحق ولا ينازع في المشهورة.

وصاحب الجدل يدعى بما يسلمه من المقدمات الصادقة مشهورة كانت، أو لم تكن؛ إذ قد لا ينقاد إلى ما لا يسلمه"(٦٣).

وقال العلامة ابن القيم–رحمه الله-:" فالحكمة هي طريقة البرهان، والموعظة الحسنة هي طريقة الخطابة، والمجادلة بالتي هي أحسن طريقة الجدل.

فالأول: يذكر المقدمات البرهانية لمن لا يرضى إلا بالبرهان، ولا ينقاد إلا له وهم خواص الناس.

والثاني: بذكر المقدمات الخطابية التي تثير رغبة ورهبة لمن يقنع بالخطابة وهم الجمهور.

والثالث: بذكر المقدمات الجدلية للمعارض الذي يندفع بالجدل وهم المخالفون"(٦٤).

وبهذا يكون الخطاب الدعوي شاملاً لجميع أنواع المدعووين.

وإن المتأمل في نصوص القرآن الكريم التي يقص الله فيها شأن المشركين، ودعوتهم، ويرد شبهاتهم ليجدها من المجادلة بالتي هي أحسن. والتي هي في غاية القوة والوضوح.

ولقد بين الله منته وفضله على رسوله إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-بتأييده في محاجة خصمه فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾

(٦٠) انظر: معجم مقاييس اللغة: (٢٢٢/١، والمفردات،(٨٧).
(٦١) التعريفات: (٧٤).
(٦٢) الكليات: (٨٤٩).
(٦٣) مجموع الفتاوي: (٤٥/٢).
(٦٤) مدارج السالكين: (٤٤٦/١).

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٣].

قال الإمام القرطبي:" تلك إشارة إلى جميع احتجاجاتهم حتى خاصمهم وغلبهم بالحجة"(٦٥).

وقد أذن الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يجادل أهل الكتاب، فقال سبحانه: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، وقال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦].

فهذا إذن بالجدال على أن يكون حقاً وأن يكون بالتي هي أحسن.

قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله-:" وقوله (وجادلهم بالتي هي أحسن) ،أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن، برفق ولين، وحسن خطاب، كقوله تعالى: (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم) فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر به موسى وهارون –عليها السلام- حين بعثه إلى فرعون"(٦٦).

وقال العلامة ابن سعدي –رحمه الله- :" فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق، أو كان داعية إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً، ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام، أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق، لا المغالبة ونحوها"(٦٧).

إذا تقرر هذا فإن المجادلة بالتي هي أحسن وسيلة مشروعة، وأسلوب دعوي لا يستغنى عنه، وأن الأصل فيها أن تكون بالتي هي أحسن.

لكن عندما يقع الظلم والحيف ينتقل إلى غير التي هي أحسن، لأن الظالم باغ مستحق للعقوبة، فيجوز أن يقابل بما يستحقه من العقوبة، ولا يجب الاقتصار معه على التي هي أحسن بخلاف من لم يظلم فإنه لا يجادل إلا بالتي هي أحسن(٦٨)، ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى:١٦].

* * *

الخاتمة

مما طرحته في هذه الدراسة يمكن الخلوص إلى النتائج الآتية:

١- أن الضوابط الشرعية للخطاب الدعوي فيما توصلت إليه هذه الدراسة أمان – بإذن الله تعالى- على الدعاة إلى الله أن تزل بهم الأقدام، أو يسقطوا في شبه المناوئين لهذا الدين متى كانت خطاباتهم صادرة عنها.

٢- أن السبيل الوحيد لمعالجة أوضاع الأمة الإسلامية، بل البشرية جمعاء هو الدعوة إلى الله تعالى عن علم وبصيرة.

٣- أن الدعوة إلى الله تعالى في مشارق الأرض ومغاربها بالحكمة والموعظة الحسنة، من واجبات الأمة كلها على حدٍ سواء كل بحسبه، هداية للعالمين وإخراجاً لهم من الظلمات إلى النور.

٤- أن هناك قصوراً في الخطاب الدعوي الحالي؛ وذلك لأسباب كثيرة أهمها غياب التأصيل العلمي، وسوء الفهم عند بعض من يمارس هذا الخطاب.

٥- أن تحقيق الشخصية الحقة للداعية إلى الله، والذي يتحمل أعباء تبليغ هذا الدين له ثماره العظيمة على الأمة كلها.

٦- أن التنويع في أساليب الخطاب الدعوي، وقراءة واقع المخاطبين قراءة صحيحة من أهم الصفات التي يجب أن يتقنها المبلغ عن ربه تعالى.

٧- أن أي خطاب دعوي يغفل شريحة من المجتمع يعتبر خطاباً غير مستوف لشروط القبول؛ وهذا دليل حق على عالمية هذا الدين.

(٦٥) الجامع لأحكام القرآن: (٣٠/٧).
(٦٦) تفسير القرآن العظيم: (٦١٣/٤).
(٦٧) تيسير الكريم الرحمن: (٢٥٥/٤).
(٦٨) انظر: الجواب الصحيح لابن تيمية: (٧٢/٣).

وأخيراً فإن هذه الدراسة توصي بأهمية التوسع في دراسة أساليب الخطاب الدعوي في القرآن الكريم، وتتبع التطبيقات العملية لها في القرآن الكريم كله بآياته المكية والمدنية.

وختاماً فإني أحمد الله تعالى على نعمة التمام حمداً كثيراً طيباً مباركاً كما يحب ربنا ويرضى، وأسأله جل وعلا- أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن، وأن يجعله خالصاً لوجه الكريم، وأسأله- سبحانه- أن يجعلنا من القائلين للحق وبه يعملون، وأن يحسن النية والقصد والعاقبة إنه حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

وصلى وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

والحمد لله رب العالمين

قائمة المراجع

[١] ـ الأخلاق والسير، لأبي محمد بن حزم الظاهري، تحقيق: عادل أبو المعاطي، نشر دار المشرق العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة:(١٤٠٨هـ).

[٢] - إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزيه، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، نشر: دار الجيل، بيروت، سنة: (١٩٦٣م).

[٣] - إحياء علوم الدين، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، نشر: مكتبة دار الشعب، القاهرة، جمهورية مصر العربية، سنة:(١٩٨٧م).

[٤] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، ضمن المجموعة الكاملة، نشر: مركز صالح بن صالح الثقافي، عنيزة، سنة: (١٤٠٧هـ).

[٥] - التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر ابن عاشور، نشر: دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

[٦] - التحفة العراقية للأعمال القلبية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، نشر: مكتبة ابن تيمية، المجلد الأول من مجموع الفتاوى.

[٧] - التعريفات، لعلي بن محمد الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الإبياري، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، سنة: (١٤١٣هـ).

[٨] - تفسير البيضاوي مع حاشية محيي الدين شيخ زاده، تحقيق: محمد عبد القادر شاهين، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة: (١٤١٩هـ).

[٩] - تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء ابن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، نشر: دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، سنة:(١٤١٠هـ).

[١٠] - التفسير القيم، لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، نشر: مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، جمهورية مصر العربية، د...

[١١] - الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة:(١٩٨٧م).

[١٢] - جامع البيان عن تأويل أي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسين التركي، نشر: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة:(١٤٢٢هـ).

[١٣] - جمهرة اللغة، لابن دريد محمد بن الحسن البصري، نشر: مؤسسة الحلبي، القاهرة.

[١٤] - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: على حسن ناصر وآخرون، نشر: دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، سنة:(١٤١٤هـ).

[١٥] - الدرر السنية، لعلماء نجد الأعلام بداية بالشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب، تحقيق وجمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر سنة:(١٤١٧هـ).

[١٦] - الزهد، لأبي داود السجستاني، تحقيق: محمد عمرو عبد اللطيف، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

[١٧] - السُّنة، لابن أبي عاصم، ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة، لمحمد ناصر الدين الألباني، نشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية،

سنة:(١٤٠٥هـ).

[١٨] - شعب الإيمان، لأبي بكر البيهقي، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، نشر، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، سنة:(١٤٢٣هـ).

[١٩] - الصحاح، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، بحواشي: عبد الله بن عبد الجبار المقدسي، وكتاب الوشاح؛ لأبي زيد التاولي، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، سنة: (١٤١٩هـ).

[٢٠] - صحيح البخاري مع الشرح لابن بطال، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، نشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية، سنة: (١٤٢٣هـ).

[٢١] - صحيح مسلم مع شرح النووي، نشر: مؤسسة المدني، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة: (١٤١٢هـ).

[٢٢] - فتح الباري يشرح صحيح البخاري، لأحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد العزيز بن باز، (١-٣)، ترتيب وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر: المكتبة السلفية، القاهرة، الطبعة الثالثة، سنة: (١٤٠٧هـ).

[٢٣] - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، عناية: يوسف الغوش، نشر:دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، سنة: (١٤١٦هـ).

[٢٤] - في ظلال القرآن، لسيد قطب إبراهيم، نشر: دار العلم للطباعة والنشر، جدة، الطبعة الثانية، سنة: (١٤٠٦هـ).

[٢٥] - القاموس المحيط، للفيروزآبادي، نشر: دار الجيل، بيروت. د.ت.

[٢٦] - كتاب العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، نشر: وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ودار الرشيد للنشر، سلسلة المعاجم والفهارس(١٦).

[٢٧] - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ويليه:الكافي الشافي، لابن حجر العسقلاني، نشر: دار المعرفة، بيروت.

[٢٨] - الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي، قابلة، عدنان درويش، ومحمد المصري، نشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، سنة:(١٤١٩هـ).

[٢٩] - لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي، نشر: دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة: (١٤١٤هـ).

[٣٠] - مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع: عبد الرحمن بن محمد القاسم، نشر: مكتبة ابن تيمية، مصر.

[٣١] - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، سنة: (١٤١٣هـ).

[٣٢] - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، سنة: (١٣٩٣هـ).

[٣٣] - معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، سنة: (١٤٢٠هـ).

[٣٤] - مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، لفخر الدين محمد بن عمر الرازي، نشر:دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة: (١٤٠٥هـ).

[٣٥] - مفتاح دار السعادة، لابن قيم الجوزية، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت. د.ت.

[٣٦] - المفردات في غريب القرآن، لحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، نشر: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الأخيرة، سنة (١٣٨١هـ).

[٣٧] - الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق: علي حسن عبد الحميد، نشر: دار ابن عفان، الطبعة الأولى، سنة: (١٤١٧هـ).

[٣٨] - نظم المتناثر من الحديث المتواتر، لأبي الفيض جعفر الحسني، نشر: المطبعة المولوية بفاس العليا المحمية، سنة: (١٣٢٨هـ).

* * *

Controls and Methods of Speech Lawsuit in Light of the Texts of the Koran

Z. A. Maharesh

Faculty of education - Jazan university

Abstract

Call to God Almighty of the important principles of Islam, a task that the prophets and messengers of God - peace be upon them - and important of them until God who prepped to carry this great mission. Any observer of the reality of speech lawsuit notice clearly a thing of the deviation in the doctrine of our time and God. It was a modest display of this research methodology to correct in calling God has a wire researcher induction and deduction approach to controls speech lawsuit and its properties and methods of the texts of the Koran. The main findings of this study that the Shariah of speech lawsuit safety - God willing - the preachers to God to still their feet, or that the fall in the sub-Almanaaaan of this religion when the speeches have issued from them, and the only way to address the situation of the Islamic nation, but of all humanity is the call to God for knowledge and insight with wisdom and fair preaching, with the correct reading of the reality of the addressees

Keywords: Speech Lawsuit - the Texts of the Koran - the Call
the Task of the Prophets

ISSN:1658-6050
Email: dz-mhrsh@hotmail.com